العقل العربي بين هويتين(الوطنيـــة - الأجنبيـــة)
قراءة في رواية (رصاصة في رأس الظل) لإستبرق الحطاب

أ.م.د. غصون عزيز ناصر
معهد الفنون الجميلة / البصرة
montada_basrah86@yahoo.com

الملخص:

غني عن البيان أن المجتمع العراقي بعد نيسان ٢٠٠٣ عانى من تفكك وانهيار اجتماعي وسياسي غير مسبوق، وانقسامات وتشرذمات حزبية وطائفية ودينية وقومية، ساعدت على تشظي الهويـــة ودخولها في بحرٍ من الصراعات بين المكونات العرقية والطائفية.إذ سرعان ما أخذت كل فئـة تدافع عن معتقداتها ومذاهبها، حتى وصل الآخر إلى شيوع ظاهرة القتل على الهويـــة، هذا من جانب ومن جانب آخر تأثير العولمة على الهوية الثقافيـة، إذ يعد البعد الثقافي الهوياتي للعولمة من اخطر أبعاد العولمـــة، فهو يعني تهميش الهوية وتدمير الثقافة الوطنية ،لاسيما الثقافة العربية والايديولوجية الاسلامية.

الكلمات المفتاحية: (العقل العربي، رصاصة في رأس الظل، استبرق حطاب).

The Arab mind between two identities
(National – Foreign)
Reading the novel (A Bullet in the Shadow's Head)
For Istabraq Al Hatab

Ghusoon Azeez Naser
Institute of Fine Arts / Basra

Abstract :

It goes without saying that the Iraqi society after April 2003 suffered from unprecedented social and political disintegration and collapse، and partisan، sectarian، religious and national divisions and fragmentation helped to fragment the identity and enter it into a sea of conflicts between the ethnic and sectarian components. Until the other reached the prevalence of the phenomenon of killing on identity، this on one side and on the other hand the impact of globalization on cultural identity، as the cultural identity dimension of globalization is one of the most dangerous dimensions of globalization، it means marginalizing identity and destroying national culture، especially Arab culture and Islamic ideology.

Keywords: (The Arab mind, a bullet in the head of the shadow, Istibraq Hattab).

المقدمـــة:

اختطت الرواية العراقية بعد عام ٢٠٠٣ واقعها الخاص المبني من مجموعة من المعطيات والمسارات التي ميزت المناخات العراقية، فتشكلت في مفاصلها السردية ملامح هذا الواقع المغاير تعالجه بشتى الاساليب والتقانات الفنية، تصوره وتعيد انتاجه وتشرح اسباب تمزق هويته ، وما تعرض له بوسائل متنوعة .

كما انها تتعامل مع ثيمات ثقافية متعدة ، ومنها ثيمة (الهوية).

فمسألة (الهوية) ليست رهناً بقضايا الصراع بين الشرق و الغرب ، الوطن و المنفى ، الانتماء و اللانتماء ، وإنما هي ذات معنى اوسع من ذلك بكثير ، كونها تجمع بين إحساس الفرد بنفسه داخلياً و بين موقفه منها خارجياً ، لتصبح رهينة الداخل والخارج نفسياً و اجتماعياً .

تتجه فرضية البحث إلى الكشف عن (العقل العربي) و تأرجحه ما بين الهوية الوطنية و الافكار الاجنبية الدخيلة ، كما يهدف البحث إلى الكشف عن مفهوم الهوية لا سيما بعد عام ٢٠٠٣

ونشوء التكتلات الطائفية و المذهبية و القومية و الحزبية ، ناهيك عما فعلته المتغيرات السياسية والاجتماعية ، التي زعزعت الاستقرار الداخلي والخارجي ، وساعدت على التقوقع وانعدام الحوار ، فعلى الصعيد الداخلي نرى طغيان الانتماءات الفرعية على الانتماء الوطني ، أما على الصعيد الخارجي فقد كان للعولمة تأثيراً كبيراً على الهوية ، بوصفها غزواً ثقافياً يحاول محاصرة الهوية وملاحقتها بشتى الطرق .

تقوم خطة البحث على ثلاثة مباحث : يدرس المبحث الاول (استبداد السلطة و محنة الهوية) بينما يتجه المبحث الثاني إلى دراسة (تشوهات الهوية) في حين يختص المبحث الثالث بدراسة (غياب الهوية) .

التمهيد:

إذا كان العقل العربي في جوهره عالمي الهوية والجذور إنساني الملامح والافاق ، فالهوية من اكثر الموضوعات إثارة للجدل ، ليس لأنها تبعث على التجريد والتأويل فحسب ، بل لأنها الاكثر خطورة حيث يتعدى القمع فكرة التعالي و الهيمنة ليصل إلى آليات التهميش والإقصاء و التميع ضد الجهات التي تعارض سلطتها وترفض هيمنتها ، لتكون هوية مهيمنة ترفض الهويات الاخرى و تعدها هجينة .

وهذا ما نراه بعد عام ٢٠٠٣ ، وما لحق به من متغيرات سياسية واجتماعية ، وثقافية داخلية وخارجية أدت إلى خلق أزمة حقيقية في المجتمع العراقي الواحد .

فضلاً عن عمليات السلب والنهب ، التي اعقبت سقوط النظام ، التي قام بها عدد من السكان المحليين ، لتدمير البنية التحتية العراقية ، وإعادة التكتلات الطائفية والمذهبية والقومية والحزبية ، كلاً حسب رؤيته ومصالحه ، لا سيما خلال سنوات (٢٠٠٥ – ٢٠٠٧)، وما لحق بها من عمليات التهجير الاجباري و الانزلاق إلى الفوضى و انشغال الوعي بهذه الصراعات العنيفة . زيادة على ذلك دخول قوى التكنولوجيا مع الاحتلال الامريكي (الإنترنت ، الستلايت ، الموبايل) التي ادت إلى تغيرات جوهرية في المجتمع والثقافة وظهور انماط جديدة ومختلفة و بعيدة عن التقاليد والعادات والاعراف المتوارثة ، ناهيك عن موجة الارهاب التي شهدتها شوارع بغداد التي راح ضحيتها عدد كبير من العراقيين مما ولد توتراً في المجتمع العراقي لا يمكن تجاهله .

حتى صار العراق يعيش في شكل غير مكتمل الهوية ، قائم على العنف و الانقسام و شيوع ثقافة الهدم والتطرف ، ومبدأ تكفير الهويات الأخرى ، الذي عصف بأرض العراق ، حتى ((يصبح الهوس إلى الحماية في غير مظلة الدولة والانطواء على الذات و العنصرية و كراهية الآخر ، والتطرف في الخيارات السياسية من المظاهر المعبرة عن فقدان الرابط الاجتماعي))[١] ، بين المكونات بعضها مع البعض الآخر .

و هذا ما تجسد في رواية ((رصاصة في رأس الظل)) للكاتبة استبرق الحطاب ، التي عنيت وحاولت أن تستجلي إشكالياتها (الهوية) في المجتمع العراقي ودورها في عراق ما بعد عام ٢٠٠٣ ، وما لحق بها من تغيرات ثقافية ناجمة عن تمفصل العلاقة بين

الهوية المحلية والهويات الدخيلة ليظهر لنا مفهوم الوهم الثقافي و ظهور ثقافة التابع لإبراز البعد الجواني المنكسر للذات الإنسانية .

المبحث الاول

استبداد السلطة و محنة الهوية

بات شائكاً الحديث عن محنة الهوية و عن أنماط الاستبداد التي تتمثلها ، و التي فرضت صورتها عبر هيمنة السلطة ، إذ تبدد الكثير من مظاهرها عبر مرجعيات صبيانية للجماعة والعرف ، وعبر أوهام وجدت في مفهوم الهوية مجالاً لتداول وتكريس المهيمنات الوثوقية ، تلك التي باتت تهدد الاختلاف والمغايرة ، والتنوع وقيم العقل والفردانية . فمحنة الهوية لا تعني محنة الخصوصية عند جماعة أو طائفة معينة بقدر ما تعني نكوصاً للجماعة و الطائفة نحو ما يشبه الاغتراب أو المنفى او الغلو ، إذ ((ليس المنفى بقعة غريبة فحسب انما هو مكان يتعذر فيه ممارسة الانتماء)) [١] ، لذا نجد رواية (استبرق الحطاب) تشكل هويتها بجدلية الانا والآخر ، وبروز الذاتية السلطوية، التي تتميز بالأنانية والتعالي على الآخر والتحقير والازدراء والتوعد لكل من يخرج عن ارادتها ، بوصفها الأمثل والأفضل و الأجدر بالوجود ، والاصح والاصدق حكماً ورأياً .

و تتجسد هذه السلطة في رواية (رصاصة في رأس الظل) بهويات مركزية متنوعة ومتعددة ، تارة تتمثل بأصحاب الخطابات السلطوية ، والهيمنة الكاملة التي تهمش الخطابات الاخرى ، وتارة اخرى تتمثل بالجماعات المسلحة واستفحال دور المليشيات و الارهابيين ، وانتشار الخطف والقتل، ناهيك عن بروز عصابات الجرائم المنظمة و لوحات الرؤوس والقتل على الهوية وتارة تتمثل بالعولمة (الثقافة الغربية) ، التي تحاول محو الثقافة العربية و فرض قيمها و تقاليدها وسلوكياتها ، لتحقيق اهداف سياسية واقتصادية و اجتماعية ، وما العولمة إلا شكلاً من أشكال الهيمنة على الثقافات المحلية ، فهي مظهر من مظاهر الغزو الثقافي .

وإذا عدنا إلى رواية (رصاصة في رأس الظل) نرى محنة الهوية تتجسد بالأصدقاء الستة ، الذين لا يخشون الموت ، ولا يمكن أن يرضخوا مهما كلّف الأمر ، الا انهم في الوقت ذاته مطاردين من لدن المسلحين ، الذين أصابوا احداً منهم في ساقه فاخذوا يتنقلون بين القرى بعد ان دمرت المدينة و اخذ الخراب يدبُّ فيها ، وينتشر في شوارعها بلا توقف وبلا تراجع ، كما في صورة هذا النص السردي الذي يسرده الرجل الاكبر سناً من بين هؤلاء الاصدقاء :

((لقد دمرت أرضنا بعد أن اقتحموها ، ومات الكثير من الاصدقاء ، ولم يسلم أحد سوانا ، فخرجنا من هناك مشياً على الاقدام حتى وصلنا إلى المكان الذي وجدتنا فيه))[١] .

ومن هنا تتضح هيمنة التسلط على الآخر وعمليات القتل و الابادة ، والتشرد والطرد ، التي طالت الشعب بأكمله بعد سقوط النظام ، ولجوء بعض ابنائهِ إلى دول أخرى ، هرباً من عمليات التصفية و الخلاف من اجل الهوية والصراع على تمثيلها .

إذ أن التحول المفاجئ من شكل الحكم الشمولي والفكر المستبد إلى الخيار الديمقراطي ولد ((انعطافه في مجرى تاريخ العراق بسبب ما حملته من تغيرات واسعة لم تتوفر الارضية المناسبة لاستيعابها))[٢]

إذ تصدعت الهوية الوطنية ، وبرزت الجماعات التعصبية ، التي أحيت روح العنصرية ، التي غرسها العهد العثماني منذ القدم .

كما تجدر الاشارة هنا إلى أن الكاتبة لم تحدد اسماء لشخصياتها ، بل اكتفت بالألقاب مثل ، الأكبر سناً ، الاصغر سناً ، الطبيب المشوه ، الدكتورة ، .... إلى غير ذلك من الألقاب .

وعليه يمكننا تفسير ذلك ، إلى تعزيز سمة (التهميش) التي لحقت أو طالت شخصياتها الروائية ، فالاسم هو هوية الانسان الاولى ، وعندما يختار الكاتب او الكاتبة اسماً لشخصياتهم الروائية ، فإنهم لا يختارونها اعتباطاً ، فلا بد أن يرسم الاسم معالم الشخصية الرئيسة وصفاتها الداخلية والخارجية .

وفي مشهد آخر تتجسد محنة الهوية بشخصية (الدكتور المشوه) ، ذلك الدكتور الذي تشوه وهو في بطن امه من لدن توأمه الآخر ، الذي اخرج و هو يقبض بيده على حبل اخيه السرّي ، مشوه خده الايسر و رقبته ، كما في صورة هذا النص :

((استغرب كثيرا من هذا المنظر الغريب . صرخ الطفل القوي فور خروجه بصوت مزعج ، بينما كان أخوه مشوه الخد الايسر ، و رقبته ايضا كانت مشوهة ، و كان صامتا تماما ، ... لا يصرخ ابدا و لا يبكي))[٣] .

ومن هنا يمكننا القول ، إن التشوه الذي طال الطفل الآخر ، دليل على تشوه هويتنا الوطنية الأم ،إذ عاش الاول (الاقوى) حياة ناعمة و متسلطة بينما عاش الآخر (الضعيف) حياة بائسة بهوية مهمشة من لدن مدير المستشفى ومن لدن الهويات المركزية الاخرى صاحبة الخطابات السلطوية التي تهمش كل من يتعارض مع احكامها المتغطرسة و المتعالية .

فبعدما يمرض الأخ (الأقوى) بمرض غريب يستفرغ بسببه كل احشائه ، ويحاول الأخ (الاضعف) الطبيب المشوه مساعدته ، يرفض مدير المستشفى والجهات المختصة (الهويات المركزية) المعالجة لهذا المريض ، اذ كان يبث الأخ (الاقوى) وهو في طفولته الأفكار الغريبة (الدخيلة) ، التي تتعارض مع العادات والتقاليد الاجتماعية ، فضلاً عن النزاعات والفتن العجيبة التي لا يعرفها سكان المنطقة الكبار ، دليل ذلك هذا النص : ((كان أشبه بمرض الطاعون رغم حداثة سنه ، أشبه بالشيطان الذي يتنكر بثوب البراءة ، حتى بالأيام الاخيرة قام الجيران بإبعاد أطفالهم من الاختلاط به))[١]

فمحاولة انقاذه تتمثل بالصحوة (صحوة الضمير) ، كما في هذا النص الحواري :

((ما الذي يؤلمك ؟

– نفسي تؤلمني (رد المريض و هو يرفع رأسه ببطء شديد)

– هل تشعر بها الان ؟ هل تلامس اعماقك ؟

– بل هي من تلمسني بقوى تعبث بمشاعري ، تخيل لي كل الامور التي صنعتها فهي تمر امامي كشريط مسجل .

– إنها صحوة أيها الرجل . فالموت ليس بخروج الروح فقط ، إنما هناك حالات يموت بها المرء ، اولها عندما يموت شعوره بالندم على ما يفعله ، وعندما يموت ضميره ...فيصبح جسداً بلا روح ، ميتاً بجميع المقاييس))[٢]

وهنا ينكشف اللثام عن البطانة الداخلية للنص ، حيث يتضح الصراع بين الهوية الوطنية والافكار الاجنبية الدخيلة ، اذ تبدأ رحلة الصراع على أرض الواقع بعد ولادة الفكرتان ، إذ أن أحد التوأم رغم قوته ونفوذه في المجتمع يتعرض إلى مرض يجعل من اعضائهِ الداخلية تتفسخ كما يتفسخ جسد الميت ، حيث يتفسخ إلى ان يصبح عدم لا يبقى منه سوى تأثير ما خلفه من أفكار . وأما الآخر فيحاول انقاذه بشتى الطرق لكن الحضنة والمستفيدين لن يدعوه حتى يقترب من المريض ابداً وينتهي به المطاف مشردا و مطلوباً لجهات لا يعرف من هي وما غايتها من ملاحقته ، كما في صورة هذا النص السردي ، الذي يسرده الراوي الخارجي :

((مضى وهو يمشي بثقل كالألعاب الآلية ، يجوب الشوارع دون اي اتجاه وبالرغم من ان هناك من يتعقبه ، إلا أنه لم ينتبه لذلك))[١] .

فـ(رصاصة في رأس الظل) عنوان الرواية للكاتبة إستبرق الحطاب لم يكن عنواناً عائماً ، ولم يأتي من فراغ لحظة اطلاقه على النص ، إنما هو لحظة مخاض واحدة للنص ولها . فقد صدرت سمة (الموت) في عنوانها ، فلوحة الغلاف ، هي العتبة الأولى التي تصافح بصر المتلقي ، فلم يعد الغلاف مجرد قشرة أو واجهة تزيينية ، بل صار يسهم في إضفاء دلالة ما إلى ما تريد قوله (الراوية).

فالرصاصة هي الفكر الذي يضرب العقل ، فأنها وان لم تضرب الرأس ، بل ضربت ظله إلا انها في الوقت ذاته تركت اثراً عليه .

إذ كان (الطبيب المشوه) يدون مذكرة حمراء تحمل افكاراً علاجية لهذا الفكر الغريب ، الذي تمثل (بالرجل الاقوى) ، لذلك حاولت الجهات المستفيدة ملاحقة الطبيب للحصول على هذه المذكرة ، وقد حصلوا عليها بعدما قتلوا (الطبيبة) صديقة (الدكتور المشوه)

الذي أودعها معها ، إلا أن المذكرة لم تكتمل فقد كانت تحتاج إلى معادلة نهائية ليكمل حلها ، كما في صورة هذا النص :

((حياته أشبه بحياة المشردين فإذا ما نطق أو آتى بأي حركة سيكتشفون مكانه من اجل اكمال باقي المذكرة الحمراء ، بعد أن اكتشفوا انها تفتقد لآخر معادلة)) [٢] .

وهنا تتكشف الأدوات النسقية ، التي توظفها الهويات المركزية ، كالعنف والتمزيق ، والغدر والاذلال ، بوصفها اساليب لضرب الخصم ، فهي ترى أن وجودها لا يستقر إلا بسحقه ، حتى يصبح العنف علامة قوة و هيمنة على الآخر .

كما تكشف الكاتبة الوقائع المسكوت عنها ، والاسرار المخفية ، والتفاصيل المروعة ، التي ولدت معها ظاهرة صعود الهويات الفرعية (الشرائح الاجتماعية المتدنية و المنبوذة) ، التي ظهرت تماشياً مع تقلب الحياة السياسية ، كما في قول الدكتور المشوه : ((- كيف لي أن اعصم نفسي من الخطأ ، وأنا أعيش بمجتمع يستنكر الصالح و يتقبل المصلح ، ويهين العالم و يرفع الجاهل ، كيف لي أن اكون كما اريد بمجتمع لا يعرف ما يريد ، ولا يهتم بما ينفعه))[٣].

وهنا ترفض الكاتبة الأنساق الاجتماعية الصاعدة ، وما نجم عنها من صراعات أهلية احدثت شرخاً جوهرياً في البنية السوسيوثقافية . كذلك نرى محنة الهوية تتمثل بالهويات الفرعية التي عانت من المنفى والاغتراب وتصدع الهوية الوطنية ، والوضع المأساوي الذي وصل اليه المجتمع العراقي بعد عام ٢٠٠٣ ، وثقافة التحول التي افرزها الاحتلال من صعود هويات وهبوط أخرى على خلفية التحولات السياسية ، حيث تصبح (محطة القطار) ، وكأنها المخلص الوحيد من كل ما يشعر به الفرد من فزع ، وخوف ، وضياع ، ويأس . كما في صورة هذا النص :

((فالخوف من القدر لا يغير وقوعه ، فقابلوه برؤوس مرفوعة وبأس شديد ، ينظرون إلى سكة القطار و كأنها المخلص الوحيد .... هناك من تنتظر زوجها ، فالمسافات جعلت منهم سكاناً للمحطات و كراجات السيارات ، لا أحد يجلس في بيته ينتظر تابوتاً يوضع أمام الباب لجثة ابنه أو أخيه أو أبيه)) [١] .

وهنا يتضمن المقتبس مضمراً نصياً يرسم صورة الذات الضعيفة المسحوقة التي تقيم على هامش مجتمع الغربة ، والتي تجعل الخوف عائقا عن الافصاح والركون إلى الراحة والاطمئنان والأمان.

حيث توتر العلاقة بين الهوية والغيرية ورغبة (الهو) البارزة في الهوية على الإزاحة والمجاوزة لقيم الغير الكامنة في اعماقها ، إذ تنحو في الغالب صوب أنكارها ، رغم أنها تدل في الواقع على غياب وحضور الغيرية في اثناء الذات [٢] .

في ضوء ما تقدم يمكننا القول ، أن محنة الذات وغربتها قضية واضحة في الرواية العراقية ومن بينهم رواية (رصاصة في رأس الظل) لاستبرق الحطاب ، كما إن انعدام الإحساس بالهوية الذاتية يولد التشظي وانعدام الانتماء للهوية الاجتماعية والإنسانية ، لذلك تركز الكاتبة (إستبرق) على مفهوم الهوية وتحاول رصدها في المجتمع العراقي لمعرفة إشكالياته وأزماته ، ولتوعية القارئ تجاه هذه الازمات ، ومعرفة الاسباب التي تقف وراءها ، من تغيرات سياسية واجتماعية والتقليد الاعمى للغرب (العولمة) ، حتى أصبح الإنسان العربي يعيش في حالة من التمزق بين مستويين من أنماط الهوية ، إذ أضحت الذات تتجاذبها حالة من الصراع بين التصورات الذهنية الراسخة في عقل (التابع) وما يقدمه المتبوع من بنى فكرية وثقافية مختلفة .

المبحث الثاني

تشوهات الهوية

تُعد الرواية من أكثر الاجناس الادبية قدرة على رصد التغيرات الاجتماعية ، إذ عالجت ثيمة الاحتلال ، وما نتج عنه من ((مضامين نفسية و ثقافية))[١] ، فضلاً عن التقلبات السلبية الحادة ، والظروف المعيشية القاهرة ، الأمر الذي يسعى فيه الروائيون إلى ترسيخه في رواياتهم ، انطلاقا من فداحة الواقع المعيش .

وإلى جانب ما ذُكر أخذت الرواية على عاتقها كشف الثقافات المتسلطة من لدن المحتل سواء بشكل ظاهر أو خفي ، إذ فرض المحتل ثقافته على الشعوب في محاولة لفرض لغته و ثقافته وتفكيره ، و يظهر ذلك جليا في الاحتلال الامريكي بعد عام

٢٠٠٣، وما تبعها من سنوات اكتظت بأحداث متناثرة هنا وهناك ، اثرت على الهوية العراقية والإنتماء الوطني .

ويعد (البعد الثقافي) من أخطر أبعاد الفكر الاستعماري ، فقد شاعت قيم ومبادئ ثقافية تعود للمحتل واحلالها محل الثقافات السائدة ، مما يعني تلاشي وتحطيم القيم والمعايير الثقافية الخاصة بنا وإحلال القيم القافية للآخر ، وهنا تأخذ الكاتبة (استبرق الحطاب) دور الشاهد الحي في بؤرة تكشف المشهد الكامل والحقيقي لما جرى في العراق ، لا سيما بعد عام ٢٠٠٣ ، وتفشي ظاهرة الاحزاب والصراعات الفكرية والجسدية ، إلى جانب عمليات التقاتل وسفك الدماء من اجل هيمنة هوية على اخرى . فضلاً عن حالات التدني الوطني والاجتماعي في الوعي الثقافي وتقليد الاخرى ، وتفرع الانتماءات وتعددها ، فتارة للوطنية وتارة للطائفة وتكريس الولاءات بدلا من انصهارها في وعاء مجتمع واحد وهوية واحدة . وهذا ما أدى إلى بروز ظاهرة تخليد الذات وتهميش الآخر ، وتكوين قاعدة لقيام العنف والصراع الذي غيب حضور الجامع الوطني واعاق عملية اعادة بناء الدولة بين الهويات بشكل عصري ، وكل ذلك كان بدافع التفرد بالسلطة السياسية والاجتماعية .

وهذا ما كشفته لنا رواية (رصاصة في رأس الظل) ، فبعد الاحتلال الامريكي للعراق في ٩ نيسان ٢٠٠٣ تدهورت الاوضاع الاجتماعية والأمنية وبرزت أعمال العنف والارهاب وعمليات التصفية والخلاف من أجل الهوية والصراع على تمثيلها ، فضلاً عن الدمار وتعاظم دور الميليشيات وغياب الهوية العقائدية للجيش ، الذي صارت تتنازعه مجموعة من الهويات المتصارعة والمتنوعة بتنوع الجماعات التعصبية ، وهذا ما يكشفه لنا النص السردي ، الذي يسرده الراوي العليم :

((وها هي المدنية ، رغم الإعاقة البدنية التي سببها الصراع ، لا تزال تسير و إن كانت على قدم واحدة ، و ها هي تعيش من جديد وكأنها لم تصب ابداً ، وان جميع الحاقدين يحاولوا أن يشوهوا منظرها بعيون اهلها و يحاولون جاهدين ان يشوهوا سمعتها ، كي يتوقف اهلها عن الدفاع عنها ، وبذلك تكون لقمة سائغة لأفواههم القذرة التي تنتظر وقوعها بشغف))[١] .

وفي مشهد آخر تتمثل تشوهات الهوية بالفتاة الصغيرة (ابنة القاضي) ، التي تبلغ من العمر اربعة اعوام تقريبا ، التي تعرضت للاغتصاب من لدن (الطفل الغريب) الذي يكبرها بكم عام وهو ذلك الطفل الذي شوّه اخاه وهو ببطن امه ، فقد كان طفلاً شيطاناً يتكلم بألفاظ غريبة ، ويمارس حركات اغرب ، إذ نظر اليها من بعيد وهي تلعب مع صديقاتها في المنطقة ، حتى اغتنم فرصة انعزالها و فعل فعلته ، كما في صورة هذا النص :

((– هيا بنا نلعب هناك – و سأعطيك الكثير من الحلوى ، ذهبت معه و هي لا تفهم نيته ، او ربما هي من الاساس لا تعلم أن هنالك شيء في الكون يسمى (نية) ، أخذها في زاوية من زوايا الزقاق الضيق ، جلسا على الارض ، أخذ يتلمس اعضاؤها ، كانت تتمنع بفطرتها ، .... أخذ يفعل بها اشياء لم يسبق لطفل أن فعلها قبله ، ... ما هي الا لحظات حتى صرخت متألمة من فعلته ، رأى منظر الدم ، هرب راكضاً بإتجاه المنزل ، بينما يمتلئ اصبعه دما))[٢] . وعليه تتكون صورة الجسد المنتهك قسريا والمشوه هوياتياً .

و كان لهذا المنظر المؤلم سوابق متجذرة تمثلت بوالد هذا (الطفل الغريب)، عندما كان شاباً ينتظر فريسته التي يراها في محطة القطار ، تلك الفتاة التي تنتظر والدها ، الذي غيبه الموت دون أن تعلم ، كما في هذا الحوار السردي :

((لماذا انتِ هنا بمفردك ؟

– لا أدري. لا ادري (أجابت و هي شاردة الذهن)

– عليكِ المغادرة حالاً . هيا

– مسكها من يدها و كأنه أصبح مسؤولاً عنها خلال لحظات .

– من أنتَ ؟ لماذا تسحبني هكذا)) [٣] .

وهكذا يتسلل (الرجل الغريب) إلى عالمها الداخلي ويتعرف على والدتها ، حتى تتسنح له الفرصة لفعله المشين ، وها هي لحظة التشويه التي طالت عذريتها البريئة ، إذ يتواعد الاثنان فوق سطح المنزل بعد خروج الأم للتسوق ، بدافع الاخبار عن والدها ،

أو أنه يعرف اموراً عن والدها المفقود ، حتى ينتهك عذريتها : ((قفز السياج الفاصل بينهما و اقترب منها

– لماذا قفزت هنا ؟ ماذا تنوي أن تفعل ؟

– أهدأي أنا اريد فقط أن اخبرك بما اعرفه عن ابيك ... اجلسي فحسب .

– لم اكن أحب أن اخبرك بذلك .

– قل ارجوك ، لم أعد أطيق التحمل .

– عندما كنت في مدينتي رأيت اباك و هو ...

– كانت صدفة ، كنت ماراً من هناك وشاهدت مسلحين يطلقون النار عليه ، وأردوه قتيلا .

– اخذت تبكي و كأنها اصيبت برصاصة في قلبها .

– اهدأي أنا معك ، ...

– أمسك يدها بقوة ، ... أحست بأنه يحاول الاقتراب منها ، ... أنقض عليها انقضاض الصياد على فريسته صرخت بصوت هستيري .

– ماذا فعلت أيها اللعين هذا ما كنت تطمح اليه ، ... كانت الصورة قد تلطخت بدماء طهارتها ...

– عليك ان تجدي حلا لنفسك ، فانا ذاهب دون رجعة ، لكنني زرعت فيك بذرة مني لن تنسلخ عنك حتى بعد موتك)) [١]

وهنا يشير الاغتصاب الجسدي الصادم في هذين النصين إلى اغتصاب الهوية الانثوية وتشوهها من لدن السلطة الذكورية ، والتأرجح بين التشظي الكياني وتشوه المحيط الخارجي ، حتى أضحت الانثى مجرد صدى لصوت الذكر ، ومحيطاً يؤثث فعالية البؤرة الطاغية لنشاط الرجل ، وهيمنته. وهذا ما تكشفه البنية الظاهرة للنص . أما البطانة الداخلية للعقل السردي للكاتبة (استبرق) فتشير إلى الهوية اللقيطة (الهوية الغربية) ، التي هيمنت علينا سياسياً واجتماعياً و تغلغلت فينا. ثم ما هو اخطر من ذلك و اكثر عمقا وديمومة هو التغلغل الثقافي وارتباط الثقافة بالأيديولوجيا مما جعلها دائماً في خدمة هذه الأخيرة .

فحينما تخضع الثقافة لسلطة الايديولوجيا فأنها تنحرف عن مسارها الاخلاقي و القيمي ففي الفترة الاخيرة نجد أن هناك سيطرة كبيرة للغرب على المجتمعات العربية والاسلامية ، سواء في التفكير أو الأسلوب العام ، والتي أثرت على عقول الشباب وجعلتهم يقومون باستخدام العديد من الادوات التي تناسب الدخول في حياتهم وتقليد الغرب سواء بالتكنولوجيا مثل ، استخدام الانترنت والهواتف الذكية ، التي اصبحت من أهم الأمور الحياتية في تلك الفترة ، وما زالت إلى يومنا هذا تؤثر في عقول شبابنا لا بل و اطفالنا أيضاً .

فضلاً عن التقليد الاعمى ، حيث يعد الغرب لا سيما امريكا من أهم المصادر الاساسية في توريد الهيمنة والقوة على الكثير من المجالات ، وهذا بدوره أدى إلى تشوه الهوية وتأرجحها ما بين (الوطنية – الاجنبية) ، بمعنى ما بين الاعتراف بالعادات او التخلص منها .

و تستمر سمة التشوه للهويات الروائية لتطال شباب القرية التي عاش فيها ذلك (الطفل الغريب) ، الذي بدأ يكبر و تكبر افكاره التهدمية ، التي أثرت على ادمغتهم وعقولهم واخلاقهم و طبائعهم لتطال المحظور والمحرم ، و ترسخ دعائم السيطرة في الفكر والخطاب ، كما في قول الراوي :

((أخذ الفتى يجلس اغلب اوقاته هناك ، وكان دائما محط فضول فتيان القرية من حيث لباسه الغريب وهاتفه النقال الذي كان لا يفارقه ، فاخذوا يتقربون منه شيئاً فشيئاً ، حتى اصبحوا يلتقون معه يوميا عند النخلة ... كان يخشى انقلاب حال الفتية يوماً بعد يوم تأثراً بمفاهيم الفتى الغريبة ، فهو يرى مدى تأثرهم بشخصيته واسلوبه و يرى تحول بعض الفتية الملفت للنظر ، ... إذ أخذ يطلعهم على بعض الفيديوات التي كان يحتفظ بها على هاتفه النقال ، وبعض الافلام الخليعة)) [١] .

ومن هنا تتكشف البطانة المضمرة للنص السردي ، التي تتمثل بالتأرجح ما بين الشرق والغرب الشرق بعاداته الرصينة والغرب بجرئتهِ ، الخليعة التي أثرت حتى على الجانب الديني ، دليل ذلك قول الراوي :

((أصبح اكثر خوفاً واضطراباً من القادم ، فقد اصبح لا يرى الفتيان يلتزمون بواجباتهم الدينية كالسابق))[٢] .

ومن هنا يمكننا القول ، بأن العولمة هي محاولة لتدمير مناعة الأمم الثقافية و الهيمنة عليها ، فهي ليست عقيدة ثابتة أو فلسفة تشمل جميع انماط السلوك الإنساني ، كما هو الحال في الحداثة وما بعدها ، بل هي نظام اقتصادي يقود المجتمع الانساني إلى دولة ليبرالية تعترف وتحمي قانونياً حقوق الإنسان العامة بالحرية و الديمقراطية ، لذلك هي دولة نهاية التاريخ [٣] .

فالعولمة والتطورات فعلت ما فعلت وفرقت ما فرقت وغيرت ما غيرت في هذا العالم المسالم .

لذلك نرى الكاتبة (استبرق الحطاب) تنتقد الواقع بطريقة السخرية ، لتصف لنا على لسان راويها حالة التمزق والشرذمة ، التي لحقت بعراق ما بعد ٢٠٠٣ ، ناهيك عن الإزاحة والنفي من مسرح الاحداث وإزالة صورة الذات ، واسقاط الوجود عبر عمليات الاضطهاد والتصفية والنفي والابادة ، يوضح ذلك قول الراوي :

((لا يعلم في هذه الساعة من ذاكرة الحقد البشري المغمسة بالتشويه التكويني ما الذي يمكن أن يخرج منه، فقد تخرج من طائرة ورقية او طائرة حربية ، وقد تخرج دبابة دفاعية او هجومية او رصاصة عمياء تقتل جيلاً كاملاً من البسطاء ، وقد يخلق مفخخاً همجياً يوزع لحمه حصصا للشيطان دون ان يعلم))[١] .

تلك هي الدلالة الصورية العامة التي تسعى الصورة الروائية الجزئية إلى انفاذها عبر الفصول السبعة للرواية ، مؤلفة مساحة الكون الروائي المصاغة بصدد البعدين ، في الزمن والذكرة والمجال الحسي والمعنوي . إذ اعتمدت الكاتبة على طريقة (السرد المتناوب) ، الذي يقوم على دمج مجموعة من القصص معاً . بمعنى يبدأ السارد بحدث من قصة ما ومن ثم ينتقل إلى حدث في قصة اخرى ، وبعد ذلك يعود إلى حدث في القصة السابقة وهكذا ، حتى يربط في النهاية القصص معاً من خلال تشابه الشخصيات أو المواقف التي تربطهم معاً ، وتسهم في تحقيق الفكرة الرئيسة الخاصة بالنص السردي .

مع توظيف الاسلوب البسيط في السرد ، لكي يستطيع القارئ استيعاب النص .

كما أن الازمنة في الرواية مسكوت عنها ، لا يشير الراوي إلى مدتها ويقتصر على إشارات فقط، فمن خلال هذه الإشارات بإمكاننا تحديده ، فهي تشير إلى احتلال ما بعد عام ٢٠٠٣،ذلك الاحتلال الذي فرض هويات ثقافية معادية و خلف افراداً مستلبين الهوية تتلون شخصياتهم وفق المتغيرات وقوة السلطة المهيمنة ، التي مزقت الهويات الأخرى ، إذ أن خطاب الرواية يحمل مهمة الكشف عن محمولات الحاضر السوداوية وفقدان الامل ، ويكشف عن قراءات متكررة للمأساة ، التي عاشها الإنسان العراقي عبر التاريخ و لا يزال يعيشها .

وقد طرحت رواية (رصاصة في رأس الظل) هوية مشوهة أخرى ، متمثلة بفتاة القرية ، التي حاول الفتى صاحب الأفكار الغريبة بإغرائها لتشويه طهارتها و فطرتها ، إذ وعدها بالزواج منها حال هروبها من المنزل إذ كانت تحبه بغزارة ، ولا تستطيع ان تتمالك نفسها ، حتى يفعل بها القدر ، للتحول إلى (فتاة ليل) بعدما تهرب و يقوم بتغيير رقم هاتفه حال هروبها ، كما في قول الراوي العليم :

((بينما هو يمشي إلى هناك ، نظر إلى باب منزلها فوجدها تنتظره خلف الباب ، اتجه نحوها بثقة، اخرج من جيبه ورقة صغيرة ،... مدت يدها الصغيرة فأمسكها بقوة ووضع بها الورقة الصغيرة ، فوجدت فيها رقم هاتف ، وملاحظة تحت الرقم كتب فيها : لا يمكننا أن نحصل على ما نريد بسهولة دون أن نجتهد و نسعى و نحارب من أجله ، ... انه يدعوها للاتصال به عندما يذهب ، وبأنه ينتظرها هناك))[١].

ومن هنا تستيقظ المدينة على صوت امها ، منبئة عن حدث عظيم وغريب ، بان ابنتها قد تركت المنزل و القرية بأكملها و هربت [٢] .

وإذا بها تتحول إلى جسد مخصص لمتعة الرجال ، يمارس الجنس ويعقد (صداقات جنسية) مع أجساد عابرة في الفنادق والأماكن المختلفة ، وهذا ما شاهده (الشاب الغريب) وهو يتنقل مع رفاقه في الملاهي : ((ما هي الا لحظات حتى دخلت ثلاث فتيات يحملن بأيديهن اكواباً من المشروبات نظر اليها الرجل نظرة ملؤها الدهشة فقد

صعق مما رآه ، .... اخذ ينظر اليها بتمعن ، حتى اكتشف أنها فعلا ذات الفتاة التي واعدها في القرية ، ...

– كيف اتيت إلى هنا ؟

– هربت من أجلك ، خسرت أهلي ومكانتي خسرت أحلامي وشرفي بسببك أيها الحقير .)) [٣] ومن هنا يمكننا القول إن الثقافة النسقية و ليست الطبيعة البيولوجية هي التي تضع قيوداً ومحددات للمرأة حتى على طرق التفكير والكتابة والابداع والسلوك [٤] . فلولا السلطة الذكورية وخطابها الثقافي لعادت الفتاة إلى منزلها بعدما فقدت العثور أو الاتصال بذلك الشاب بدلاً من الإنخراط في علاقات غير شرعية ، واعادة دمجها في الوسط الاجتماعي وصياغة هويتها وحقوقها التي هضمت . وهذا ما كشفته الدلالة العامة للنص السردي المقتبس . ومن هنا تضعنا النصوص المقتبسة من رواية (رصاصة في رأس الظل) ازاء تحولات جذرية في الدين ، والقيم ، والاخلاق ، تلك التحولات الناتجة عن تداعيات سلبية لواقع التشظي والشرذمة ، وما كانت تعانيه الشخصيات الروائية من تشوهات وأزمات على صعيد الهوية ، أنعكست على روح المواطنة والإنتماء في محاولة لتفسير الأنحدار المأساوي للمجتمع العراقي بعد عام ٢٠٠٣ ، فضلاً عن عمليات التحديث القادمة من الغرب ، التي أثرت في تفاصيل الحياة والفكر وخلقت التمزقات الاجتماعية والتوترات السياسية ، لا سيما في مجتمع يعاني اساساً من التمزق بسبب ضعف هويته الوطنية (كالعراق) .

المبحث الثالث

غياب الهوية

مرت الشخصيات الروائية (لاستبرق الحطاب) بظروف متعددة ومتنوعة وقاسية ، أدت إلى اضطرابات و تعثر في مفهوم الانتماء وتخلخل معرفة النفس والآخر، ناهيك عن أنعدام روح المواطنة ، بوصفها ((رابطة تتعلق بالموقع القانوني والسياسي للأفراد والجماعات في الدولة تنطوي على مبدأ المساواة بين المواطنين من ناحية الحقوق التي

يحوزونها والواجبات التي يتحملونها ، بصرف النظر عن اي اعتبار آخر غير كونهم مواطنين في الدولة)) [١] .

وهذا بدوره يبدد مفهوم الهوية الجوهرية ويزيحها ، ذلك المفهوم الذي أصبح من أكثر المفاهيم تعقيداً وإشكالية تميز كل ثقافة من الثقافات ، وأزمة تعيشها الجماعات التي تحتاج إلى جغرافية انتماء و هوية مشتركة تمثل مختلف الفئات ، و على وجه الخصوص ما حل بالهوية العراقية من تشويه ناتج عن انظمتها السياسية المتعاقبة ، و ما لحق بها من استفحال لظاهرة العنف و تخريب قدرة الانتماء ، فضلاً عن الاحتلال الامريكي للعراق وما أسفر عنه من عمليات إبادة وتطهير عرقي اشعل بنيرانه غربة الفرد عن المجتمع الذي ينتمي اليه ، و الفشل في خلق هوية عراقية توحيدية مشتركة وشاملة للمجتمع ، أضف إلى ذلك تنامي مفاهيم جديدة وأنساق مستحدثة أدت إلى تقسيم العراق مثل ، الميليشيات التي انتعشت في أماكن متعددة وروعت السكان المحليين والارهاب الذي يمكن أن نفسر موجته إلى ((أسباب دينية جوهري تتصل بالرؤية الاسلامية للديانات والثقافات الأخرى ، بدل النظر اليها بوصفها اثر مجموعات متطرفة معزولة لا تمثل التيار الرئيس في الأمة الاسلامية))[٢] .

نتيجة لكل ذلك ، وضمن هذه الحدود حاولت الكاتبة (استبرق الحطاب) سرد حكايات الضحايا والاشارة إلى حالنا في ظل صعود هويات فرعية قاتلة ، والوضع المأساوي ، الذي وصل اليه المجتمع العراقي (المتعدد الهويات) ، وهذا يؤشر إلى وعي الكاتبة لإشكاليات الهوية في العراق بعد التغيير ، بوصفها سمة سائدة في الفكر العراقي بمختلف طبقاته .

وهذا ما مثلته شخصية (الرجل العجوز) ، ذلك الرجل الذي كان يعيش في القرية ، يأذن في جامعها ويعلم شبابها و أطفالها القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية ، الذي أنقذ الاصدقاء الستة الهاربين من صراعات المدنية ، بل والمطاردين منها . إذ حاول أخذهم إلى بيته واطعامهم ، إذ لم يشعروا بقيمتهم الحقيقية ، كما يشعرون بها وهم في بيته ، الذي يملؤه الإيمان والخشوع ، كما في قول الراوي الخارجي :

((كان الرجل العجوز يقرأ القرآن بخشوع وبصوت لم يسبق لهم ان سمعوه ، صوته قد أحيا فيهم جميع الخصال الاولى التي يقيمونها بحياتهم ، ... فهم منذ الصغر لم يشعروا أنهم بشر كما يشعرون الآن))[١] .

وها هي اللحظة الحاسمة ، فبعدما قضوا أياماً في بيت الرجل العجوز قرروا العودة إلى المدنية ، فقرر(الرجل العجوز) أخذهم في سيارته ، وفي أثناء الطريق وحال وصولهم إلى كراج السيارات ، وإذا بهم مطوقين من لدن مجموعة من المسلحين ، الذين قاموا بإطلاق النار عليهم من كل اتجاه ، يوضح ذلك هذا المشهد السردي :

((دخلوا إلى المدينة وكان الخوف يراودهم بين الفينة والأخرى ، لم يحسبوا حساب أن هناك موت يتلصص بهم وينتظر قدومهم ،...حتى خرج لهم عزرائيل منتشراً على هيئة مجموعة مسلحة))[٢].

وهنا يسقط (الرجل العجوز) ضحية هذه المؤامرة القذرة التي نصبها المسلحون، دليل ذلك هذا النص السردي :

((كان عليهم الهروب بأسرع وقت ممكن ، فلم يتبقَّ لديهم الكثير من الذخيرة ، بينما الرجل العجوز ينام على إطار السيارة نومة ملائكية والرصاصة تسكن في صدره))[٣].

وهنا تظهر الهوية المغيبة والذات المضطهدة عقائدياً ، ((تلك التي تشعر بعلاقة تسلطية او قمعية او تصنيفية – بمعناها السلبي – او عرقية من قبل الآخر ، لمجرد انها تختلف عنه)) [٤] .

(فالرجال العجوز) يشير إلى الدين الاسلامي الذي بات مشوهاً يتعرض للهجوم من الداخل والخارج ، وقتله يشير إلى القيم الاخلاقية العالية التي اصطدمت مع الآخر بكل أنواعه ، عقائدي واجتماعي وثقافي (العولمة) ، تلك الأنواع التي تتهمه بالانحراف لذلك تتواطأ فيما بينها لتعمل على إيجاد منظومة قيم نمطية سمتها الخضوع الاكراهي للسلطة ، وكبت كل من يخالف هذه المنظومة . وهذا ما فسره (الرجل الأكبر سناً) من بين الاصدقاء الستة على لسان الراوي :

((أنظر إلى هؤلاء الناس كيف يعيشون بأمان (قال الأكبر سناً) أنظر إلى نفوسهم الصافية والنقية التي لم تلوثها اجواء المدن ، والتي لم يشغلها ريح التقدم والتحضر التي

جعلت منا بشراً كالوحوش والتي حولتنا دون أن نشعر إلى أشبه بالقطعان المتوحشة))[٥].

وها هي (الرصاصة) التي أصابت (الرجل العجوز) تصيب بدورها (الفتاة) صاحبة السبع عشرة سنة ، وهي ابنة صاحب الفيلا التي اختبأ بها هؤلاء الاصدقاء حال مطاردتهم من قبل المسلحين ، عندما حاولت مساعدتهم والتلويح لهم بوجود المسلحين هنا داخل البيت الكبير الذي يعود لأبيها :

((صرخ الأكبر سناً صرخة فزع على الفتاة :

- اهربي بسرعة :

لكن الوقت قد انتهى لا مجال للهروب أو التراجع ابداً ، فقد بدأ المسلحون بأطلاق النار بكثافة وعشوائية كان ابوها قد أحضر سلاحه ايضا ، وهو مستعد لهذه الهجمة بشكل جيد ، ... كان والد الفتاة اكثر تركيزاً منهم جميعا كان قد سدد رميته ببراعة على صدر ابنته ، لتخترق الرصاصة قلبها الابيض))[١] .

وهنا يتبلور (سرطان الطائفية) وسياستها القمعية و الارهابية ، وتوظيف ثقافة العنف والاقصاء والرغبة اللاواعية لإفناء الآخر والسيطرة عليه ، حتى وأن كان ذلك على حساب الأقرب منها ، دليل ذلك قول الأكبر سناً : ((عليكم اللعنة . حتى من هو منكم لم يسلم منكم ، لمجرد انه شريف وطاهر وحاول أن ينقذنا))[٢] .

لذلك جعلت الكاتبة (استبرق) هذه الشخصية (الفتاة المنقذة) تستفرغ ما تحمله من دماء لتنقي جسدها من دنس الخيانة و الطائفية : ((ربما هي حكمة الله لهذه الفتاة بان تخرج ما تحمله من دماء ، لانه ينتسب لذلك الرجل الذي خان امته و مبادئه))[٣].

وتستمر (ثقافة العنف) والتغييب للهوية الوطنية لتطال الاصدقاء الستة ، الذين كانوا يتنقلون ما بين المدن خوفاً من تلك الرصاصة التائهة ، ليلقوا حتفهم بحيلة من رجل ينتمي إلى تلك الجماعة المسلحة التي تطاردهم أينما يكونوا ، ليصبح أمر (الفرز والتهميش) واقعاً ملموساً نلتمس أثره في جوانب حياة المجتمع العراقي كافة ، كما في صورة هذا النص السردي :

((بعد رقودهم في يوم المحشر كان الرجل ذو الشاربين وابنه وثلاثة رجال يدخلون بأسلحتهم فور فتحهم للباب ، انهالوا ضرباً بالرصاص الحي دون سابق انذار ، رشوهم ما يرش رجال الاطفاء الحرائق دون توقف ، ... فقد ثقبت الرصاصات جسدهم بشكل طولي كسلسلة الخياطة))[٤].

فنتيجة لهذا المشهد البانورامي والصورة البشعة للتعذيب تحولت تلك الهويات إلى هويات مغيبة ، ترصد بطريقة جريئة و واضحة الملامح و الصفات في معاناة الذات بسبب العقيدة التي تنتمي إليها .

كما تعترف الأنا باختلافها المذهبي عن الآخر الذي حاصرها مكانياً وزمانياً و اجتماعياً ، إذ أنها مهما حاولت أن تفلت من القمع و تظهر على السطح ، تبقى الذات المهدرة و المضطهدة عقائدياً.

وتبقى (الرصاصة) تلاحق شخصيات (استبرق الحطاب) لتطال اغلبها ، فها هي هذه المرة تطال جسد (الطبيبة) صديقة (الطبيب المشوه) ، الذي حاول أن يأتمنها على (المذكرة الحمراء) بعدما كان مطارداً من لدن هويات مركزية ، تحاول جاهدة الحصول على تلك المذكرة ، كما في قول الراوي :

((أخذ يرتدي ثيابه بينما كان شارداً بالتفكير بما حصل للدكتورة بعد أن اتصلت به . خرج وقتها من الفندق ، متجهاً نحو المرسم شاهد الباب مفتوحاً مما يدل على أنهم اقتحموا المكان ، ... كان رأسها مثقوباً عدة مرات ، وكأنه قد تم ثقبه بآلة التثقيب . ويداها الداميتان مثقوبتان من منتصف الكف ، وكأنهم قد قيدوها على الكرسي بمسامير كبيرة وعذبوها بشكل بشع للغاية إلى ان اخبرتهم عن مكان المذكرة))[١] .

ومن هنا نرى أشكال الهيمنة للهوية المركزية وخطابها المؤسساتي ، الذي يهيمن على الخطابات الاخرى عبر آليات الاقصاء والتهميش والتغييب ، ناهيك عن ثقافة العنف والخوف والرعب وعدم إتاحة فرصة الكشف والبوح ، الذي يتجسد عبر هذا المشهد الدرامي ، وعلى هذا الاساس يمكن القول ، ان الكاتبة (استبرق) جعلت من ثيمة (الموت) ثقافة مشاعة تطال شخصياتها الروائية لتغدو أرقاماً بائسة يتلقفها الفناء و العدم .

فالموت هو جزء أساسي من هذه الحياة حتى لو بدا للوهلة نقيضاً لها ، فهو الوجه الجانبي لها ، وأهمية الحياة تكمن في كونها ضد الموت . وهنا تسلط الكاتبة الضوء على فلسفة (الموت) من خلال (الدلالة الاستيتيقية) عبر جمالية الموت في الرواية .

فالسمة الاساسية هي سيطرة (الموت) على مفاصل الرواية وامتدادها من فضائها الورقي إلى حقيقة الإنسان سوسيولوجيا ، وعلى مستواه الفردي ، ولأن الرواية ابنة الواقع والبيئة فقد اختطت رواية (رصاصة في رأس الظل) الواقع العربي بعد عام ٢٠٠٣ .

والأمر الذي لابد من ذكره ، هو أن رواية (رصاصة في رأس الظل) لاستبرق الحطاب تحمل في طياتها الصوت المجهور والصريح ، وذلك الاسلوب المتنوع واللغة المتفردة والمميزة ، لتصوير الواقع العراقي بجوانبه المختلفة والمتباينة ، ومعالجة المواضيع الاجتماعية بأسلوب السخرية والتهكم ، كلعبة لكشف الأنساق المضمرة والمخفية في البنية الاجتماعية ، ورصد الهويات المهيمنة التي تتحكم في المجتمع بعد عراق ٢٠٠٣ ، ناهيك عن التأرجح ما بين هويتنا الوطنية والافكار الدخيلة لتبدل الوعي بالذات وبالآخر وبالعالم ، لاسيما بعدما اصبح العالم في عصر الثورة التكنولوجية والعولمة (قرية كونية صغيرة) ، كما في صورة هذا النص السردي :

((الحياة عجلة تدور على أجسادنا ، تعبر إلى الاشياء المفقودة فينا ، وها نحن نتساقط واحداً تلو الآخر كالدومينو المصفوفة على طرق العولمة المحدثة ، وها هي تدوسنا حاملة معها كل الرغبات الذاتية))[١].

ومن هنا تطرح الكاتبة (استبرق الحطاب) قضية الهوية المفقودة في عصر غلبت فيه المادة والفكر المشوه ، الذي استهوى قطاعاً واسعاً من ابناء الامة ، غيب هويتهم بسياط (العنف) الذي يعد مكوناً اصيلاً وشديد الحضور في حياتنا ، وبالتالي في مخيلتنا وما ابتدعه من أعمال وآلية تمثلها ابداعياً وحجم تأثيرها على البناء السردي للرواية .

الخاتمـــة

لا يسعنا في خاتمة البحث إلا الوقوف عند أهم وأبرز ما خرجنا به من دراسة (العقل العربي بين هويتين (الوطنية – الاجنبية) قراءة في رواية (رصاصة في رأس الظل) لاستبرق الحطاب

١- تتقصى الكاتبة (إستبرق) مسألة الهوية ، بوصفها رديف الكينونة ، وكيف أن الازدواج هي السمة الثقافية ، التي تجمع بها الابعاد الذاتية النفسية والاجتماعية والسلوكية ، لكي تعبر عن كينونته الإنسانية ، سواء كان ذلك الازدواج تعدداً أو تمركزاً أو تضامناً أو اختلافاً .

٢- سعت الكاتبة في أن تكون روايتها غير خاضعة للنظم المقولبة و التقليدية . واستطاعت بقدرة فنية عالية من الإفادة من (ثيمة الموت) ، كونها من القضايا الحساسة والاساسية في حياة الإنسان ، موظفة في ذلك طرح نظم من القصص تمد القارئ بحركات من التجديد وفق آليات مغايرة وغير مباشرة .

٣- هيمنة الهوية المركزية التي تمتلك خطاباً مؤسساتياً ناطقاً بأسم السلطة على الهويات الأخرى .

٤- بروز ثقافة (العنف) ، التي تميزت بالموت المادي الفيزيقي للشخصيات الروائية وبالعنف الرمزي ، الذي تمثل بالسلب والنهب ، وأعمال التخريب والتدمير، تلك الاعمال التي طالت عراق ما بعد ٢٠٠٣ ، وما رافقه من سطوة النزاعات الطائفية والتفكيك العرقي .

٥- بروز ثيمة الصراع بين الأنا / والآخر أو المركز / والهامش ، مع سيطرة الخطابات السلطوية على الخطابات الاخرى .

٦- حاولت الكاتبة تعرية الانساق الثقافية المضمرة ، التي تسعى إلى محو الهوية ، مؤكدة في ذلك أن عدم احترام الآخر سمة التصقت بالتغيير .

٧- بنت الكاتبة (استبرق الحطاب) احداثها على بنية التصريح والكشف والنقد ، لتصوير الواقع العراقي بجوانبه المختلفة ، ومعالجة المواضيع الاجتماعية بأسلوب السخرية والتهكم للتعبير عن موقفها منها .

٨- تناولت الكاتبة موضوع (العولمة) وتأثيرها الثقافي على الهوية الوطنية و ثقافتنا العربية. إذ اصبحت كل الافكار والقيم والسلوكيات مستوردة وليست أصلية ، وهذا بدوره يعود إلى ضعف الثقافة وهويتها الوطنية .

الهوامش :

[١] – ازمة الهويات – تفسير تحول ، كلود دوبار ، تر : رنده بعث ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، تشرين الثاني ، ط١ ، ٢٠٠٨، ص٣٣٧.

[٢] – الكتابة و المنفى ، د. عبد الله ابراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٢ ، ص٧.

[٣] – رصاصة في رأس الظل ، استبرق الحطاب ، دار و منشورات وتر ، العراق – البصرة ، ط١ ، ٢٠٢١ ، ص١٥ .

[٤] – المجتمع العراقي و ديناميات التغيير ، أ . د. عدنان ياسين ، بيت الحكمة ، بغداد ، ٢٠١١ ، ص٦٩.

[٥] – رصاصة في رأس الظل ، استبرق الحطاب ، ص٦٣.

[٦] – المصدر نفسه ، ص٩٥.

[٧] – المصدر نفسه ، ص١٨

[٨] – المصدر نفسه ، ص٢٢٤.

[٩] – المصدر نفسه ، ص٢٣٠ .

[١٠]– المصدر نفسه ، ص٢٢٤ .

[١١]– المصدر نفسه ، ص٩١ .

[١٢]– ينظر : الذات والآخر ، تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع ، محمد شوقي الزين ، منشورات ضفاف ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٢ ، ص٧٢ ، و ينظر كذلك : الهوية و الوجود – العقلانية التنويرية و الموروث الديني ، دار يوش شايغان ، تر : جلال بدلة ، دار الساقي ، بيروت لبنان ، ط١ ، ٢٠٢٠ ، ص٨ .

[١٣]- النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة ، ارثر ايزبراجر ، ت : وفاء ابراهيم ، ورمضان بسطاويسي ، المجلس الاعلى للثقافة ، سلسلة المشروع القومي للترجمة (٦٠٣) القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣ ، ص١٠٨ .

[١٤]- رصاصة في رأس الظل ، استبرق الحطاب ، ص٦٢.

[١٥]- المصدر نفسه ، ص٩٧-٩٨ .

[١٦]- المصدر نفسه، ص١٢٤

[١٧]- المصدر نفسه ، ص٢٠١-٢٠٢ .

[١٨]- المصدر نفسه ، ص١٧٢.

[١٩]-المصدر نفسه ، ص١٧٤.

[٢٠]- ينظر : نهاية التاريخ ، فرنسيس فوكوياما ، تر: يوسف ابراهيم الجهماني ، دار الحضارة الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣ ، ص١٦ . و ينظر كذلك : سيكولوجيا السلطة ، سالم القمودي ، مؤسسة الانتشار ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٠ ، ص٥١ .

[٢١]- رصاصة في رأس الظل ، استبرق الحطاب ، ص٢٢٩.

[٢٢]- المصدر نفسه ، ص١٧٥-١٧٦.

[٢٣]- ينظر : المصدر نفسه ، ص١٧٧.

[٢٤]- المصدر نفسه ، ص٢١١.

[٢٥]- ينظر : الخطاب النسوي العراقي (دراسة في التمثيل السردي) ، محمد رضا الاوسي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٢ ، ص١٣ ، وينظر كذلك : السرد النسوي ، الثقافة الابوية ، الهوية الانثوية ، والجسد ، د. عبد الله ابراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١١ ، ص٢١٥ .

[٢٦] – إشكالية بناء الثقافة المشاركة في الوطن العربي ، د. حسين علوان ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩ ، ص٩٨ .

[٢٧] – الدين والهوية ، إشكاليات الصدام والحوار والسلطة ، السيد ولد أباه ،جداول للنشر ، لبنان ، ط١، ٢٠١٠ ،ص١١٢.

[٢٨] – رصاصة في رأس الظل ، استبرق الحطاب ، ص٤١.

[٢٩] – المصدر نفسه ، ص٥٣.

[٣٠] – المصدر نفسه ، ص٧٧.

[٣٠] – تمثلات الذات المروية على لسان الانا ، د. منال بنت عبد العزيز العيسى ، الدار العربية للعلوم ناشرن ، بيروت، ط١، ٢٠١٣ ، ص٣٩٠.

[٣٢]– رصاصة في رأس الظل ، استبرق الحطاب ، ص٤٤.

[٣٣] – المصدر نفسه ، ص١١٦.

[٣٤] – المصدر نفسه ، ص١١٧.

[٣٥] – الصفحة نفسها .

[٣٦] – المصدر نفسه ، ص١٩١–١٩٢.

[٣٧] – المصدر نفسه ، ص٢١٨–٢١٩.

[٣٨] – المصدر نفسه ، ص٢٢٧.

المصادر و المراجع

اولاً : المصادر

١– رصاصة في رأس الظل ، استبرق الحطاب ، دار ومنشورات وتر ، العراق – البصرة ، ط١ ، ٢٠٢١ .

ثانياً : المراجع

١– أزمة الهويات – تفسير تحول ، كلود دوبار ، تر : رندة بعث ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، تشرين الثاني ، ط١ ، ٢٠٠٨.

٢– إشكالية بناء الثقافة المشاركة في الوطن العربي ، د. حسين علوان ،مجد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٩.

٣– تمثلات الذات المروية على لسان الأنا، د.منال بنت عبد العزيز العيسى ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٣.

٤- سيكولوجيا السلطة ، سالم القمودي ، مؤسسة الانتشار ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٠.

٥- النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة ، ارثر ايزيراجر ، ت: وفاء ابراهيم و رمضان بساويسي ، المجلس الاعلى للثقافة ، سلسلة المشروع القومي لترجمة ، (٦٠٣) القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣.

٦- الخطاب النسوي العراقي (دراسة في التمثيل السردي) ، محمد رضا الاوسي ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط١ ، ٢٠١٢ .

٧- الدين والهوية إشكاليات الصدام والحوار والسلطة ، السيد ولد اباه ،جداول للنشر، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٠ .

٨- الذات والآخر تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع ، محمد شوقي الزين ، منشورات ضفاف ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣.

٩- السرد النسوي ، الثقافة الابوية ، الهوية الانثوية والجسد ، د. عبد الله ابراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١١.

١٠- الهوية و الوجود – العقلانية التنويرية والموروث الديني ، دار يوش شايغان ، تر: جلال بدلة ، دار الساقي ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠٢٠.

١١- الكتابة و المنفى ، د. عبد الله ابراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠١٢.

١٢- المجتمع العراقي وديناميات التغيير ، أ.د.عدنان ياسين ، بيت الحكمة ، بغداد ، ٢٠١١ .

١٣- نهاية التاريخ ، فرنسيس فوكوياما، تر: يوسف إبراهيم الجهماني ، دار الحضارة الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣.